ثم يقول :

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

الرب : هو المتولّى للتربية والرعاية . والتربية تعنى أن يأخذ المربِّى المربَّى بالرياضة إلى ما يصلحه لأداء مهمته والقيام بها ، كما لو أردتَ مهندساً تُربِّيه تربية مهندس ، وإن أردت طبيباً تربيه تربية طبيب . ونحن هنا أمام قوم أشركوا بالله ، ونحتاج لداعية يُخرجهم من الشرك إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة .

فالمعنى : ما دام أن الله تعالى ربى وربكم ، والمتولّى لتربيتنا جميعاً ، فلا بُدَّ أن يُربّى لكم مَنْ يصلحكم ؛ لأنه تعالى لا يخاطبكم مباشرة ، بل سيبعثنى إليكم أبلغكم رسالته ، وأدعوكم إلى عبادته وحده لا شريك له . وما دام الله ربى وربكم فمن الواجب أنْ تُطيعوه ﴿ فَاعْبُدُوهُ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم] والعبادة أنْ يطيعَ العابدُ معبوده في أوامره وفي نواهيه . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٥﴾ ﴾ [البينة]

ثم يقول تعالى : ﴿ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم] أى : الذى لا التواءَ فيه ولا اعوجاجَ ، وهو الطريق الذى يُوصِّلك لمقصودك من أقرب طريق ، وبأقلّ مجهود ، ومعلوم أن الخط المستقيم هو أقرب طريق بين نقطتين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

الأحزاب : أى الذين اختلفوا في عيسى عليه السلام من قومه ، فمنهم مَنْ قال : هو إله ، ومنهم مَن قال : ابن إله ، وآخر قال : هو

ثالث ثلاثة . ومنهم مَنْ رماه بالسحر وقال عنه بعضهم : ابن زنى - نستغفر الله مما يقوله الظالمون والكافرون - .

والأحزاب : جمع حزْب ، وهم طائفة من الناس اجتمعوا حول مبدأ من المبادىء ، ورأى من الآراء يدافعون عنه ويعتقدونه ، ويسيرون في حياتهم على وفقه ، ويُخضعون حركة حياتهم لخدمته .

ومعنى : ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ .. (٣٧)﴾ [مريم] يعني من داخل المؤمنين به ومن أتباع عيسى أنفسهم ، فالذين قالوا عنه هذه الأباطيل ليسوا من أعدائه ، بل من المؤمنين به .

وهكذا اختلف القوم في أمر عيسى ، وكان لكل منهم رأى ، وجميعها مُنَافية للصواب بعيدة عن الحقيقة ؛ لذلك توعدهم الخالق سبحانه بقوله : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾ [مريم]

فقد قلتم في عيسى ما قُلْتم في الدنيا ، وخُضْتم فيه بما أحببتُمْ من القول : لأن الله تعالى جعل إرادتكم نافذة على جوارحكم ، وأعطاكم حرية الفعل والاختيار ، فوجّهتم جوارحكم واخترتم ما يُغضب الله ، فكان عقوبة الدنيا لا تناسب ما فعلوه ، ولابُدَّ لهم من عقوبة آجلة في الآخرة تناسب ما حدث منهم في حَقِّ نبيهم وفي حَقِّ ربهم تبارك وتعالى .

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾ [مريم] ومشهد يوم عظيم هو يوم القيامة ، يوم تُبْلَى السرائر ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

وسماه المشهد العظيم : لأنه يوم مشهود يشهده الجميع ؛ لأن العذاب في الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون ، ولا يشهده

السابقون ولا اللاحقون ، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذى يراه كل الخَلْق .

وربما كان بعض العذاب أهونَ من رؤية الغير للإنسان وهو يُعذَّب ، فربما تحمَّل هو العذاب فى نفسه أما كونه يُعذَّب على مرأىً من الناس جميعاً ، ويرونه فى هذه المهانة وهذه الذلة وقد كان فى الدنيا عظيماً أو جباراً أو عاتياً أو ظالماً ، لا شكَّ أن رؤيتهم له فى هذه الحالة تكون أنكى له وأبلغ .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عنهم فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) ﴾ [الأنعام] هذا منهم مجرد كلام : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ .. (٢٨) ﴾ [الأنعام] أى : ظهر لهم ما كانوا يخفون ولم يقُلْ يخفَى عنهم ، كأنهم كانوا يعلمون عنه شيئاً ولكنهم أخفوْه .

وقال عنهم : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا[1] رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ [السجدة]

فلماذا أبصروا وسمعوا الآن ؟ لأنهم كانوا يسمعون فى الدنيا عن غير وَعْى ، فينكرون ويُبصرون آيات الله فى الكون ولا يؤمنون ، أما فى الآخرة فقد انكشفتْ لهم الحقائق التى طالما أنكروها ، ولم يَعُدْ هناك مجال للمكابرة أو الإنكار ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾

(١) نكَس رأسه : طأطأه ذلاً وانكساراً . [القاموس القويم ٢/٢٨٦] .

قوله : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ .. ㊳ ﴾ [مريم] أي : أسمع بهم وأبصر بهم ، وهذه من صيغ التعجب على وزن (أفعل به) يعني ما أشدّ سمعهم ، وما أشدّ بصرهم ، فهم الآن يُرهفون السمع ويُدقّقون النظر حتى إن الإنسان ليتعجب من سمعهم الدقيق ، وبصرهم المحيط بعد أن كانوا في الدنيا يضعون أصابعهم في آذانهم فلا يسمعون ، ويستغشون ثيابهم فلا يبصرون ، كانوا في عَمىً عن آيات الله الواضحات التي تثبت صدْق الرسل ، وعن الآيات التي تحمل الأحكام ، وعن الآيات الكونية التي تدلُّ على قدرة الصانع الحكيم .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا .. ㊳ ﴾ [مريم] أي : أسمع بهم وأبصر بهم في هذا اليوم يوم القيامة ، والإنسان بحكم خلْق الله تعالى له ، واستخلافه في الأرض جعل له السيطرة على جوارحه فهو يأمرها فتطيعه ، فجوارح الإنسان وطاقاته مُسخّرة لإرادته ، فلسانك تستطيع أنْ تنطقَ بـ لا إله إلا الله ، كما تستطيع أن تقول : لا إله أو تقول : الله ثالث ثلاثة . واللسان مطْواع لك لا يعصاك في هذه أو تلك ، وما أعطاك الله هذه الحرية وكفَل لك الاختيار إلا لأنه سيحاسبك عليها يوم القيامة : أأردتَ الخير الذي وجّهك إليه أم أردتَ الشر الذي نهاك عنه ؟

أما يوم القيامة فتنحلُّ هذه الإرادة ، ويبطل سلطانها على الجوارح في يوم يُنادي فيه الحق تبارك وتعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ⑯ ﴾ [غافر] يومها ستشهد الجوارح على صاحبها ، كما قال الحق سبحانه تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ㉔ ﴾ [النور]

ويقول تعالى : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. ㉑ ﴾ [فصلت]

لم لا ؟ وقد تحررتْ الجوارح من قَيْد الإرادة ، وجاء الوقت لتشتكي

إلى الله ، وتنطق بكلمة الحق التي كتمتْها تحت وطأة الإرادة وقهْرها .

وسبق أن ضربنا مثالاً لذلك بمجموعة من الجنود يسيرون تحت إمْرة قائدهم المباشر ، ويأتمرون بأمره ، ويطيعونه طاعة عمياء ، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى انطلقتْ ألسنتهم بالشكوى من تعسُّف قائدهم وغطْرسته .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَـٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾ [مريم] فيا ليتهم فهموا هذه المسألة ، لكنهم ظلموا ، وما ظلموا إلا أنفسهم ، فالله تبارك وتعالى لا يضره كفر الكافرين ، ولا ينقص من مُلْكه تعالى وسلطانه ، لكن كيف يظلم الإنسان نفسه ؟

يظلم الإنسان نفسه ؛ لأنه صاحب عقْل واعٍ يستقبل الأشياء ويميزها ، وصاحب نفس شهوانية تصادم بشهواتها العاجلة هذا العقل الواعي ، وتصادم المنهج الربّاني الذي يأمرها بالخير وينهاها عن الشر ، هذه النفس بشهواتها تدعو الإنسان إلى مرادها وتوقعه في المتعة الوقتية واللذة الفانية التي تستوجب العذاب وتُفوِّت عليه الخير الباقي والنعيم الدائم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾ [يونس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ .. (٣٩) ﴾ [مريم] الإنذار : هو التحذير من شر قادم .

والحسرة : هى الندم البالغ الذى يصيب النفس الإنسانية حينما يفوتها خير لا يمكن تداركه ، وحينما تلقى شيئاً لا تستطيع دفعه . أما الندم فيكون حزناً على خير فاتكَ ، لكن يمكن تداركه ، كالتلميذ الذى يخفق فى امتحان شهر من الشهور فيندم ، لكنه يمكنه تدارك هذا الإخفاق فى الشهر التالى ، أما إذا أخفق فى امتحان آخر العام فإنه يندم ندماً شديداً ، ويتحسَّر على عام فات لا يمكن تداركُ الخسارة فيه .

لذلك سيقول الكفار يوم القيامة : ﴿ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنعام]

والمعنى : يا حسرتنا تعالَىْ فهذا أوانك ، واحسرتى فقد فاتتْ الفرصة إلى غير رجعة . إذن : فيوم الحسرة هو يوم القيامة ، حيث لن يعود أحدٌ ليتدارك ما فاته من الخير فى الدنيا ، وليتَ العقول تعى هذه الحقيقة ، وتعمل لها وهى ما تزال فى سَعَة الدنيا .

ومعنى : ﴿ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [مريم] أى : وقع وحدث ، ولا يمكن تلافيه ، ولم يَعُدْ هناك مجال لتدارُك ما فات ؛ لأن الذى قضى هذا الأمر وحكم به هو الله تبارك وتعالى الذى لا يملك أحدٌ ردَّ أمره أو تأخيره عن موعده أو مناقشته فيه ، فسبحانه ، الأمر أمره ، والقضاء قضاؤه ، ولا إله إلا هو .

وروى عن رسول الله ﷺ : « أن الله حينما يُدخل أهلَ الجنة الجنةَ ، ويُدخِل أهلَ النار النار يأتى بالموت على هيئة كبش ، فيقول للمؤمنين : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هو الموت جاءنا وعرفناه ، ويقول للكفار : أتعرفون هذا ؟ يقولون : عرفناه ، فيميت

الله الموت ويقول لأهل الجنة : خلود بلا موت . ولأهل النار : خلود بلا موت »[1] .

وهكذا قضى اللهُ الأمرَ ليقطع الأمل على الكفار الذين قد يظنُّون أن الموت سيأتي ليُخرجهم مما هُمْ فيه من العذاب ويريحهم ، فقطع الله عليهم هذا الأمل وآيسهم منه ، حيث جاء بالموت مُشخَّصاً وذبحه أمامهم ، فلا موتَ بعد الآن فقد مات الموت .

لذلك يخبر عنهم الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [مريم]

الغفلة : أن ينصرف الإنسان ذِهْنه عن الفكر في شيء واضح الدليل على صحته ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - ما كان ليُعذِّب خَلْقه إلا وقد أظهر لهم الأدلة التي يستقبلها العقل الطبيعي فيؤمن بها .

فالذي لا يؤمن - إذن - إما غافل عن هذه الأدلة أو متغافل عنها أو جاحد لها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل]

ومن الغفلة غفلتهم عن الموت ، وقد قالوا : من مات قامت قيامته[2] .

ومن حكمة الله أنْ أبهم الموت ، أبهمه وقتاً ، وأبهمه سبباً ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٣٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . وقد وصف الكبش في الحديث بأنه كبش أملح . قال القرطبي : « الحكمة في ذلك أن يجمع بين صفتي أهل الجنة والنار السواد والبياض » نقله ابن حجر في الفتح (٨/٤٢٨) .

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه في غِنىً كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه في ضيق وسَّعه عليكم » الحديث .

وأبهمه مكاناً ، فكان إبهام الموت هو عَيْن البيان للموت ؛ لأن إبهامه يجعل الإنسان على استعداد للقائه في أيّ وقت ، وبأيّ سبب ، وفي أيّ مكان ، فالموت يأتي غفلة ؛ لأنه لا يتوقف على وقت أو سبب أو مكان .

فالطفل يموت وهو في بطن أمه ، ويموت بعد يوم ، أو أيام من ولادته ، ويموت بعد مائة عام ، ويموت بسبب وبدون سبب ، وقد نتعجَّب من موت أحدنا فجأة دون سبب ظاهر ، فلم تصدمه سيارة ، ولم يقع عليه جدار أو حجر ، ولم يداهمه مرض ، فما السبب ؟ السبب هو الموت ، إنه سيموت ، أي أنه مات لأنه يموت ، كما يقال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

كيف يقول الحق سبحانه : ﴿ نَرِثُ الْأَرْضَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم] وهي والكون كله ملْك له تعالى ؟ قالوا : لأنه تبارك وتعالى هو المالك الأعلى ، وقد ملَّك من خَلْقه من ملَّك ، هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فليس لأحد ملك على شيء ، ليس للإنسان سيطرة حتى على جوارحه وأعضائه ، فالأمر كله يومئذ لله تعالى ، فيُردّ الملْك إلى صاحبه الأعلى ، ولا أحدَ يرث هذا الملْكَ إلا الله تعالى .

لذلك ، فالذين اغترُّوا بنعم الله في الدنيا فظنوا أن لهم مثْلها في الآخرة ، فقال أحدهم : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] نقول له : لا ، صحيح ستُرَدّ إلى ربك ، لكن لن يكون لك عنده شيء ؛ لأن الذي ملَّكك في الدنيا ملَّكك من باطن ملكيته تعالى ، فإذا ما جاءت الآخرة كان هو الوارث الوحيد .

وقوله : ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم] أى : أن الأمر لا يتوقف على أنْ نرث مُلْكهم ، ويذهبوا هم لحال سبيلهم ، بل سنرث مُلْكهم ، ثم يرجعون إلينا لنحاسبهم فلن يخرجوا هم أيضاً من قبضة الملكية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى فى استهلال سورة مريم عن ميلاد سيدنا يحيى لزكريا ، وعن ميلاد سيدنا المسيح من مريم ، أراد أنْ يعرض لنا موكباً من مواكب الرسالات التى أرسلها الله نوراً من السماء لهداية الأرض ، فقال :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم]

فهو أبو الأنبياء وقمتهم ؛ لأن الله تعالى مدحه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل]

فليس هناك فرد يحتوى على خصال الكمال ومواهب الفضل كلها ، لكن المجموع يحتويها فهذا شجاع قوى البنية ، وهذا ذكى ، وهذا حادّ البصر ، وهذا نابغ فى الطب ، وهذا فى الزراعة ، مواهب متفرقة بين البشر ، لا يجمعها واحد منهم ، فلا طاقته ولا حياته ولا مجهوده يستطيع أن يكون موهوباً فى كل شىء ، فالكمال كله مُوزّع في الخَلْق ، إلا إبراهيم ، فقد كان عليه السلام يساوى فى مواهبه أمةً بأكملها .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم] صدِّيق : من مادة صدق ، ومعناها : تكلّم بواقع ؛ لأن الكذب أنْ تتكلّم بغير واقع . وهذا يُسمَّى : صادق في ذاته ، أما قولنا : صدِّيق أى : مبالغة فى الصدق ،

فقد بلغ الغاية في تصديق ما يأتي من الحق تبارك وتعالى ، فهو يطيع ويذعن ولا يناقش ، كما رأينا من أم موسى ـ عليه السلام ـ لما قال لها الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. ۝٧﴾ [القصص]

بالله ، أي أم يمكن أن تُصدِّق هذا الكلام ، وتنصاع لهذا الأمر ؟ وكيف تُنجِّي ولدها من شر أو موت مظنون بموت مُحقَّق ؟

إذن : فهذا كلام لا يُصدَّق ، وفوق نطاق العقل عند عامة الناس ، أما في موكب الرسالات فالأمر مختلف ، فساعة أنْ سمعتْ أم موسى هذا النداء لم يساورها خاطر مخالف لأمر الله ، ولم يراودها شكٌّ فيه ؛ لأن وارد الله عند هؤلاء القوم لا يُعارض بوارد الشيطان أبداً ، وهذه قضية مُسلَّمة عند الرسل .

إذن : الصِّدِّيق هو الذي بلغ الغاية في تصديق الحق ، فيورثه الله شفافية وإشراقاً بحيث يهتدي إلى الحق ويُميِّزه عن الباطل من أول نظرة في الأمر ودون بحث وتدقيق في المسألة ؛ لأن الله تعالى يهبكَ النور الذي يُبدِّد عندك غيامات الشك ، ويهبك الميزان الدقيق الذي تزنُ به الأشياء ، كما قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ۝٢٩﴾ [الأنفال]

ومن هنا سُمِّي أبو بكر رضي الله عنه صِدِّيقاً ، ليس لأنه صادق في ذاته ، بل لأنه يُصدِّق كل ما جاءه من رسول الله ﷺ ؛ لذلك لما أخبروه خبر الإسراء والمعراج الذي كذَّب به كثيرون ، ماذا قال ؟ قال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] .

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

فالأمر عنده متوقف على مجرد قول رسول الله ، فهذا هو الميزان عنده ، وطالما أن رسول الله قد قال فهو صادق ، هكذا دون جدال ، ودون مناقشة ، ودون بَحْث في ملابسات هذه المسألة ؛ لذلك من يومها وهو صدِّيق عن جدارة .

والسيدة مريم قال عنها الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ .. (٧٥) ﴾ [المائدة] فسماها صديقة ؛ لأنها صدَّقتْ ساعة أنْ قال لها الملك : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) ﴾ [مريم]

فوثقتْ بهذه البشارة ، وأخذتْها على أنها حقيقة واقعة ، فلما جاء الوليد أشارت إليه وهي على ثقة كاملة ويقين تام أنه سينطق ويتكلم .

إذن : فالصِّدِّيق ليس هو الذي يَصْدُق ، بل الذي يُصدِّق . وهكذا كان خليل الله إبراهيم (صديقاً) وكان أيضاً (نبياً) لأن الإنسان قد يكون صديقاً يعطيه الله شفافية خاصة ، وليس من الضروري أن يكون نبياً ، كما كانت مريم صدِّيقة وأبو بكر صدِّيقاً ، فهذه إذن صفة ذاتية إشراقية من الله ، أما النبوة فهي عطاء وتشريع يأتي من أعلى ، وهُدى يأتي من السماء يحمل النبي مسئوليته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) ﴾

هذا الحديث من إبراهيم عليه السلام لأبيه على اعتبار أنه نبي جاء ليُعدِّل سلوك الناس على وَفْق منهج الله ، وأولهم أبوه ، وقد ذكره القرآن هكذا بأبوته لإبراهيم دون أن يذكر اسمه ، إلا في آية واحدة قال فيها : ﴿ لِأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الأنعام]

وهذه الآية أحدثت إشكالاً فظنّ البعض أن آزر هو أبو إبراهيم الحقيقي الصُّلبي ، وهذا القول يتعارض مع الحديث النبوي الشريف الذي يُوضّح طهارة أصل النبي محمد ﷺ حيث قال : « أنا خيار من خيار ، ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات »[1] .

إذن : فأصول النبي إلى آدم « طاهر متزوج طاهرة » ، فلو قلنا : إن آزر الذي قال الله في حقه : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة] هو أبو إبراهيم ، لكانَ في ذلك تعارض مع الحديث النبوي ، فكيف يكون في آباء محمد ﷺ مثل هذا الكافر ؟

ولو تأملنا إطلاقات الأبوّة في القرآن الكريم لخرجنا من هذا الإشكال ، فالقرآن تكلم عن الأبوة الصُّلبية المباشرة ، وتكلم عن الأبوة غير المباشرة في الجد وفي العم ، فسمَّى الجد أباً ، والعم أباً ؛ لأنه يشترك مع أبي في جدي ، فله واسطة استحق بها أن يُسمَّى أباً . وفي القرآن نصّان : أحدهما : يُطلق على الجد أباً ، والآخر يُطلق على العم أباً .

فالأول في قوله تعالى من قصة يوسف عليه السلام :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

فاختاروا يوسف لتأويل رؤياهم ؛ لأنهم رأوه من المحسنين ،

---

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (١٦٦/١) من حديث واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » . وعند ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق الكبير (٢٧٨/١) عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] بفتح الفاء ، وقال : « أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح ، كلنا نكاح » .

فكان الإحسان له مقاييس معروفة حتى عند غير المحسن ، فلما تعرضوا لأمر يهمهم لم يلجئوا إلا لهذا الرجل الطيب ، فمقاييس الكمال محترمة ومعتبرة حتى عند فاقد الكمال .

فلما قالوا له ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف] علم أنهم متتبعون حركاته وتصرفاته ، وكيف سلوكه بينهم ، فأراد أن يزيدهم مما عنده من إشراقات ، فأمره ليس مجرد سلوك طيب وسيرة حسنة بينهم ، بل عنده أشياء أخرى ، فقال : ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا .. ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف]

ثم ترك الإجابة عن سؤالهم ، وأخذ في الحديث فيما يخصه كنبيّ وداعية إلى الله ، فأخبرهم أن ما عنده من مواهب هو عطاء من الله ، وليس هو بذكي منهم ، فقال : ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف]

ثم يلفت نظر رفاقه إلى بطلان ما هم عليه من عبادة أرباب متفرقين لم ينفعوهم بشيء ، فهاهم يتركونهم ويلجئون إلى يوسف الذي له ربٌّ واحد : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف]

وهكذا كان يوسف النبي الداعية حريصاً على نَشْر دعوته وهداية مَنْ حوله ، حتى وهو في سجنه ما نسيَ مهمته ، وما قصَّر في دعوته ، فلما فرغ من موعظته واستطاع بلباقة أنْ يُسمعهم ما يريد ، وإلاَّ لو أجابهم عن سؤالهم من بداية الأمر لانصرفوا عن هذه الموعظة ، وما أعاروها اهتماماً .

والآن يعود إلى سؤالهم وتفسير رؤياهم : ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي

ربه[1] خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف]

شاهدنا في هذه القصة هو قوله تعالى : ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [يوسف] ويوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، فسمى الأجداد آباء .

وقد يُسمَّى العمُّ أباً ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق .. ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة] فعدَّ إسماعيل في آباء يعقوب ، وهو عمُّه .

إذن : لو أن القرآن الكريم حينما تحدث عن أبي إبراهيم فقال (لأبيه) في كل الآيات لانصرف المعنى إلى الأبوة الصُّلْبية الحقيقية . أما أنْ يقول ولو مرة واحدة ﴿ لأبيه آزر .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام] فهذا يعني أن المراد عمه ؛ لأنه لا يُؤتى بالعَلَم بعد الأبوة إلا إذا أردنا العم ، كما نقول نحن الآن حين نريد الأبوة الحقيقية : جاء أبوك هكذا مبهمة دون تسمية ، وفي الأبوة غير الحقيقية نقول : جاء أبوك فلان .

وبناءً عليه فقد ورد قوله تعالى : ﴿ لأبيه آزر .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام] مرة واحدة ، ليثبت لنا أن آزر ليس هو الأب الصُّلْبي لإبراهيم ، وإنما هو عمُّه[2] ، وبذلك يسلم لرسول الله ﷺ طهارة نسبه ونقاء سلسلته إلى آدم عليه السلام .

---

(١) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى راعي الأسرة ورئيسها . [القاموس القويم ١ / ٢٥٦].
(٢) آزر : اسم أعجمي . وقد اختلف في اسم أبي إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه « تارح » وبعضهم قال « تارخ » . وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم الصنم الذي كانوا يعبدونه . انظر : تفسير القرطبي (٣ / ٢٥٤٤) ، وابن كثير في تفسيره (٢ / ١٤٩) وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤) ، ولسان العرب (مادة أزر) . وقصص الأنبياء ـ عبد الوهاب النجار (ص ٩٢-٩٦) .

وقوله : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] وكان التركيب العربي يقتضي أن يقول : يا أبي ، إلا أنهم يحذفون ياء المتكلم ويُعوِّضون عنها بالتاء ، فلماذا ؟ قالوا : لأن (أبت) لها ملْحظ دقيق ، فهو يريد أنْ يُثبت أنه وإنْ كان أباً إلا أن فيه حنان الأبوين : الأب والأم ، فجاء بالتاء التي تشير إلى الجانب الآخر ؛ لذلك نجدها لا تُقال إلا في الحنانية المطلقة (يَا أبَت) كما لو ماتتْ الأم مثلاً ، فقام الأب بالمهمتين معاً ، وعوض الأبناء حنان الأم المفقود .

وقوله : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] يبدو من أسلوب إبراهيم عليه السلام مع أبيه أدبُ الدعوة ، حيث قدَّم الموعظة على سبيل الاستفهام حتى لا يُشعر أباه بالنقص ، أو يُظهر له أنه أعلم منه .

﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] نلحظ أنه لم يقُلْ من البداية : لمَ تعبد الشيطان ، بل أخَّر هذه الحقيقة إلى نهاية المناقشة ، وبدل أنْ يقولَ الشيطان حلَّل شخصيته ، وأبان عناصره ، وكشف عن حقيقته : لا يسمع ولا يبصر ، ولا يُغني عنك شيئاً ، فهذه الصفات لا تكون في المعبود ، وهي العلَّة في أنْ تتجنبَ عبادة ما دون الله من شجر أو حجر أو شيطان ، وخصوصاً في بيئة إبراهيم - عليه السلام - وكانت مليئة بالأوثان والأصنام .

لأن العبادة ماذا تعني ؟ تعني طاعةَ عابد لمعبود في أمْره ونَهْيه ، فالذين يعبدون ما دون الله من صنم أو وَثَنٍ أو شمس أو قمر ، بماذا أمرتْهم هذه المعبودات ؟ وعن أيِّ شيء نَهتْهم ؟ وماذا أعدَّتْ هذه المعبودات لمنْ عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟ ما المنهج الذي جاءتْ به حتى تستحقُّ العبادة ؟ لا يوجد شيء من هذا كله ، إذن : فعبادتهم باطلة .

ثم يقول :

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾

يُكرِّر نبي الله إبراهيم هذا النداء الحنون مرة أخرى ، وكأنه يريد أنْ يثير في أبيه غريزة الحنان ، ويُوقظ عنده أواصر الرحم ، كأنه يقول له : إن كلامي معك كلام الابن لأبيه ، كما نفعل نحن الآن إنْ أراد أحدنا أنْ يُحنِّن إليه قلب أبيه يقول : يا والدي كذا وكذا .. يا أبي اسمع لي . وكذلك حال إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث نادى أباه هذا النداء في هذه الآيات أربع مرات متتاليات ، وما ذلك إلا لحرصه على هدايته ، والأخْذ بيده إلى الطريق المستقيم .

وقوله : ﴿ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم] أي : لا تظن يا أبي أنّي متعالم عليك ، أو أنّي أفضل ، أو أذكى منك ، فهذا الكلام ليس من عندي ، بل من أعلى مني ومنك ، فلا غضاضة في سماعه والانصياع له ، وهو رسالة كُلِّفْتُ بإبلاغك إياها ، وهذا الذي جاءني من العلم لم يأتكَ أنت ، وهذا اعتذار رقيق من خليل الله ، فالمسألة ليستْ ذاتية بين ولد وعمه ، أو ولد وأبيه ، إنها مسألة عامة تعدَّتْ حدود الأبوة والعمومة .

ولذلك لما تحدَّثْنا في سورة الكهف عن قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ ، قلنا : إن العبد الصالح التمس لموسى عُذْراً : لأنه تصرَّف بناءً على علم عنده ، ليس عند موسى مثله ، فقال له : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الكهف] وكذلك قال إبراهيم لأبيه حتى لا تأخذه العِزّة ، ويأنف من الاستماع لولده .

ثم يقول : ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم] لأن هذا المنهج الذى أدعوك إليه ليس من عندى ، بل من أعلى منى ومنك ، والصراط السَّوِىّ : هو الطريق المستقيم الذى يُوصلّك للغاية بأيسر مشقة ، وفى أقصر وقت .

ثم يقول :

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾

نلحظ أن إبراهيم فى بداية محاورته لأبيه قال : ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم] وهنا يقول : ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ .. ﴿٤٤﴾﴾ [مريم] مع أن الشيطان يمكن أن يسمع ويبصر ، فكيف يكون ذلك ؟

قالوا : لأن الشيطان هو الذى يُسوِّل عبادة الصنم أو الشجر أو الشمس أو القمر ، فالأمر مردود إليه وهو سببه ، إلا أن إبراهيم عليه السلام حلّ المسألة المباشرة ؛ لأن أباه يعبد صنماً لا يسمع ولا يُبصر ، ولا يُغنى عنه شيئاً ، وهذا بشهادتهم أنفسهم ، كما جاء فى قوله تبارك تعالى : ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء]

فهذا استفهام ، ولا يستفهم مُستفهم مجادل ممَّن يجادله عن شىء ، إلا وقد علم أن الجواب لا بُدَّ أن يكون فى صالحه ؛ لأنه ائتمنه على الجواب . إذن : فعبادة ما دون الله مردُّها إلى إغواء الشيطان .

ثم يستطرد إبراهيم قائلاً : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا (٤٤)﴾ [مريم] عصياً : مبالغة في العصيان ، فالشيطان ليس عاصياً ، بل عَصِياً يعصى أوامر الله بِلَدَدٍ وعناد .

ثم يقول :

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾

مازال خليل الله يتلطف في دعوة أبيه فيقول : ﴿يَمَسَّكَ عَذَابٌ .. (٤٥)﴾ [مريم] ولم يقلْ مثلاً : يصيبك . فهو لا يريد أنْ يصدمه بهذه الحقيقة ، والمسُّ : هو الالتصاق الخفيف ، وكأنه يقول له : إن أمرك يُهمني ، وأخاف عليك مجرد هبو التراب أن ينالك . وهذا منتهى الشفقة عليه والحرص على نجاته .

ثم يقول : ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾ [مريم] أي : قريباً منه ، وتابعاً له يصيبك من العذاب ما يصيبه ، وتُعذَّب كما يُعذَّب .

وهكذا انتهتْ هذه المحاورة التي احتوتْ أربعة نداءات حانية ، وجاءت نموذجاً فريداً للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فراعتْ مشاعر الأب الذي يدعوه ولده ويُقدِّم له النُّصْح ، ورتبت الأمور ترتيباً طبيعياً ، وسَلْسَلَتْها تسلسلاً لطيفاً لا يثير حفيظة السامع ولا يصدمه .

وقد راعى الحق - تبارك وتعالى - جوانب النفس البشرية فأمر أنْ تكونَ الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة حتى لا تجمع على المدعو قسوة الدعوة ، وقسوة أنْ يترك ما ألف ، ويخرج منه إلى ما لم يألف .

فأنت حين تدعو شخصاً إلى الله فإنما تُخرجه عن الفساد الذى ألفه ، ومن لم يألف الفساد إلا بعد أن اشتهاه أولاً ، ثم اعتاده بالفعل والممارسة ثانياً ، وهاتان مصيبتان آخذتان بزمامه ، فما أحوجه لأسلوب لَيِّن يستميل مشاعره ويعطفه نحوك ليستجيب لك .

وما أشبه الداعية فى هذا الموقف بالذى يحتال ليخلص الثوب الحرير من الأشواك ، أما إنْ نهرته وقسوْتَ عليه فسوف يُعرض عنك ، وينصرف عن دعوتك ، ويظلّ على ما هو عليه من الفساد ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

ويقولون : النصح ثقيل فلا تُرسلْه جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، وقالوا : الحقائق مُرّة فاستعيروا لها خفّة البيان .

وبعد أنْ أنهى إبراهيم مقالته يرد الأب قائلاً :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) ﴾

الفعل (رغب) يحمل المعنى وضده حَسْب حرف الجر بعده ، تقول : رغب فى كذا . أى : أحبه وذهب إليه ، ورَغب عن كذا أى : كرهه واعتزله ، فمعنى ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ .. (٤٦) ﴾ [مريم] أى : تاركها إلى غيرها ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .. (١٣٠) ﴾ [البقرة] أى : تركها إلى ملّة أخرى .

ونلاحظ أن الفعل رَغب لم يأتِ مقترناً بعده بفى إلا مرة واحدة ،

وإنْ كانت (في) مُقدَّرة بعد الفعل ، وهذا في قوله تعالى من نكاح يتامى النساء : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ .. ١٢٧ ﴾ [النساء]

والرغبة في الشيء تعني حُبه وعشقه ، والرغبة في الطريق الموصِّل إليه ، إلا أنك لم تسلك هذا الطريق بالفعل ، ولم تأخذ بالأسباب التي تُوصلك إلى ما ترغب فيه ، وهذا المعنى واضح في قصة أصحاب الجنة في سورة (ن) حيث يقول تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ ١٧ وَلا يَسْتَثْنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ١٩ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ٢٠ ﴾ [القلم]

فقد اتفقوا على قَطْف ثمار بستانهم في الصباح ، ولم يقولوا : إن شاء الله ، فدمَّرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفي الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم :

﴿ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ٢٤ ﴾ [القلم]

وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حَرَموا المسكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٢٧ ﴾ [القلم] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ ، وعادوا إلى صوابهم فقالوا : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ٣٢ ﴾ [القلم]

أي : راغبون في الطريق الموصِّل إليه تعالى ، فقبل أنْ تقول : أنا راغب في الله ، قل : أنا راغب إلى الله ، فالمسألة ليست حُباً فقط بل

(١) الصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة ، فيصرمنها : أي يقطعون ثمارها . وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ٢٠ ﴾ [القلم] أي : أصبحت حديقتهم بعد احتراقها كالليل المسود أو صارت كالأرض التي قطعت أشجارها ولا نبات فيها . [القاموس القويم ١/ ٣٧٥] .

حُبًا بثمن وسَعْي وعَمل يُوصلك إلى ما تحب . إذن : قبل أنْ تكونوا راغبين في ربكم ارغبوا إليه أولاً .

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ .. (٥٨)﴾ [التوبة] أي : يعيبك في توزيعها ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)﴾ [التوبة] فهم - إذن - لا يحبون الله ، وإنما يحبون العطاء والعَرَض الزائل ، بدليل أنهم لما مُنِعُوا سخطوا وصرفوا نظرهم عن دين الله كمَنْ قال الله فيهم :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١)﴾ [الحج]

لذلك يُعدِّل لهم الحق سبحانه سلوكهم ، ويرشدهم إلى المنهج القويم : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)﴾ [التوبة] أي : آخذين الوسيلة الموصِّلة إليه ، فالذي يرغب في حب الله عليه أنْ يرغبَ في الطريق الموصِّل إليه .

ثم يقول أبو إبراهيم : ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ .. (٤٦)﴾ [مريم] أي : تترك هذه المسألة التي تدعو إليها . والرجْم : هو الرمي بالحجارة ، ويبدو أن عملية الرجم كانت طريقة للتعذيب الشديد ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ .. (٢٠)﴾ [الكهف]

﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾ [مريم] أي : ابتعد عني وفارقني ﴿مَلِيًّا (٤٦)﴾ [مريم] المليّ : البُرْهة الطويلة من الزمن . ومنها الملاوة : الفترة الطويلة من الزمن . والملوَان : الليل والنهار .